الغضب

بقلم
محمود البدوى

خرج ابراهيم من المنزل في الصباح .. واخذ يسير في شوارع القاهرة كالضال .. وهو شاعر باقصى درجات التعاسة .. فقد ظل يبحث عن وظيفة منذ تخرج في الجامعة وطال البحث والتنقل بين المكاتب والدواوين دون نتيجة ..

وكان في جيبه ثلاثون قرشا ولم يكن يعرف بعدها كيف يواجه الحياة .. فقد باع كل ما يمكن ان تاتيه بما يسد رمقه .. حتى كتبه باعها .. ولم يبق لديه شيء يباع واصبح في حالة قاتلة من اليأس والعذاب وسدت أمامه كل المنافذ واظلمت الدنيا في عينيه حتى فكر في الانتحار كآخر وسيلة للخلاص مما هو فيه من بؤس ..

وكان يحمل الخطو متثاقلا وفي رأسه الخاطر الاسود الذي اخذ يلح عليه ، ولاحظ لأول مرة وهو يمشي في شارع سليمان باشا تجمعات الجماهير في أكثر من مكان ثم صوضاء وصخب واخذت الصوضاء ترتفع ويعلو صخبها حتى اشتم رائحة الثورة من الانفاس المتحركة في الطريق .

كان هناك شيء لم يدركه يجري في قلب القاهرة شيء لم يكن في حسابه ولكن حدوثه كان مقدرا بعد العاصفة المثيرة التي ظهرت في صحف الصباح عن معركة الاسماعيلية بالامس بين جنود بلوكات النظام والانجليز .

اشتم رائحة الثورة وهو يتحرك وحده في الشوارع الضيقة .. فلما اشرف على ميدان مصطفى كامل راى أبواب المتاجر تتحطم .. والناس تتدفق كالسيل في موج يدفعه موج .. فشعر بهزة وسار في ركابها ..

وكانت الجموع تزداد في كل لحظة هياجا وغضبا .. وترتد عن الشارع ثم تعود اليه .. وبدا له جليا انه لا يحركها ولا يصدها احد .. وانها تتحرك من تلقاء نفسها بفعل الغضب وحده .. تتحرك وهي ترعد .. ومن عيونها يظل الشرر ..

وكلما انتقل من شارع الى شارع كان يسمع خبرا مثيرا وجديدا عن معركة الامس .. كان يسمع خبرا يلهب حماسة الجماهير ويزيد من غضبها ..

ولما وصل الى شارع « فؤاد » راى لونا آخر من الغضب عل وجوه الجموع

الحاسية .. رأى عصا أسود لم يره من قبل .

رأى الاثاث يلقى من النوافذ والشرفات، والنيران تشتعل في المتاجر والبيوت وسمع الصراخ يفزع اذن الجمهور، وبدأت أجراس عربات المطافئ تدوى في الشوارع .. الجرس وراء الجرس .. والخراطيم تمتد على الارض .. والسلالم الطويلة تصل الى السقوف .

واخذ الماء يتدفق في الشارع ويغسل واجهات العمارات العالية وامتلأت الطرقات بالهشيم وتمزق الخشب المتساقط والزجاج المحطم وقطع الرخام المهشم .

وردته الجماهير الى مكان آخر من نفس الحي .. وشاهد الجموع تجرى فتجرى معها دون ان يدرى الغاية من العدو !! ثم توقفت واحدث تسير في صفوف متراصة وحيل اليه أنها أصبحت تسد عين الشمس .

***

ولمح جنود رجال المطافئ الحماسيه تلمع وصباب الدخان يملأ الجو وتشمر بصدره يضيق من الدخان فانحرف الى شارع عند الخالى تروت وهناك شاهد نفرا من الناس يحاول أن يحطم باب أحد المتاجر .. فوقف من بعيد يراقبها دون أن يشترك معها في العمل .

ولما تحطم الباب الحديدى .. رآهم يتدفقون الى الداخل ويراقب العمل بصراوة وشغله مما رهم الوحشى ، فأسرع اليهم ودخل معهم المتجر ورآهم يلتقطون المجوهرات والساعات في لمح البصر ويحشون بها جيوبهم .

ودون أن يشعر أو يحس بما فعل امتدت يده سريعا ووضع « عقدا » من الجواهر الثمينة في جيبه .. وأحس بالعرق وهو يفعل هذا ولكنه لما خرج من المحل . عاد الى نفسه ومشى هادئا في الطريق ثم الفى نفسه يسرع ويخرج من الشارع .

***

وكان قد دخل في قلب المعركة وشاقه العمل كله . شاقه تدفق الجماهير في الشوارع وحماستها وصياحها بل شاقه اللهب نفسه ..

وكانت النيران تشتعل وأسقف البيوت تتداعى حوالية ...

وسمع على قرب صوتا مضطربا كان صوت الرصاص المنطلق والصراخ يمزق السكون ..

وجاءت عدة طلقات في تعاقب سريع .

وادرك أن العمارة المجاورة تحترق .. ان حى السوك يحترق في الحال .

وكان شعاع الشمس يتخلل الدخان الاسود ..

***

ودفعته الجموع الى عمارة عالية في الشارع وصعد السلالم معهم بقوة الدفع .

ولم يكن وهو يصعد يعرف الغرض من صعودهم وفي الدور الثالث توقف على البسطة ..

وسأل شابا من الصاعدين ..

ـ الى أين نصعد ..؟

ـ فوق .. الحريق في الدور الخامس ..

ـ لا يوجد انجليز في هذه العمارة .. قالها بسرعة دون اى تفكير .

وكيف عرفت هذا ..؟

ـ أعرف عن نفسي .. لا يوجد انحلال هنا ...

ـ بل يوجد في الدور الخامس .. والناس كلها تقول ذلك .. ومن أنت أتسكن هنا ؟

ـ أبدا ...

ـ وكيف تنفي وجودهم إذن ... انك خائن .. جاسوس !!!

ـ جاسوس .. جاسوس ...

وسمع الكلمة فارتعش قلبه .. واحاطت به الجماهير .. وأحس بأنه يختنق ..

وأخذوا يضربونه .. فأفلت منهم وجرى على وجهه الى تحت ..

وفي الشارع كان يصدو كالمخبول ويسمع الكلمة تلاحقه ..

ـ جاسوس .. جاسوس ...

فدعر وعر هاربا ..

***

ووجد نفسه بعد أن انحلع قلبه من الذعر والعدو .. يدخل أول بيت صادفه ويصعد السلالم سريعا .. ووقف أمام شقة في الدور الرابع .. وضغط على الجرس بهلع .. فقد كان الأقدام تلاحقه على السلم .. وأطلت سيدة من وراء الباب ... وقبل أن تفتح فمها كان قد دخل والدم يسيل من وجهه وأغلق الباب ووقف وراءه .

فطرت اليه السيدة في استغراب ووجل ولكن حالة الذعر التي كان عليها وصياح الجماهير وراءه جعلها تدرك حاله .

وسمع الاصوات على السلم تصيح

ـ أين ذهب ...؟

ـ هرب .. ودخل الشقة في هذا الدور ..

ـ في هذه الشقة ..

وأخذوا يقرعون كل الابواب .. ولما قرعوا باب الشقة التي دخل فيها ابيض وجه السيدة ولم تفتح وجست انفاسها وظلت في مكانها جامدة .. وسقط ابراهيم في هذه اللحظة مغميا عليه من الخوف .. لما تصور انهم شرعوا يحطمون الباب ..

وأخذت السيدة وخادمتها تحاولان اسعافه بكل الطرق .. وشعرت بهم وهم يهبطون الدرجات ويرحلون .

***

ولما أفاق ابراهيم وجد نفسه ممددا على كنبة .. والسيدة وخادمتها تسعفانه وتغسلان جراحه .. فتذكر ما حدث ونظر الى السيدة في دلة كان يخشى أن تطرده بعد أن استرد وعيه ..

وسمعها تقول للخادمة ..

ـ اعملي قهوة يا سنية للافندي .

ـ شكرا يا سيدتي لا داعي للتعب .

ـ القهوة تنفعك في هذه الحالة .. اسرعي يا سنية ..

وعادت سنية تحمل صينية القهوة

وأخذ ابراهيم يترشف فنجانه في تؤدة وهو يشكرها .. ولاحظ أن ملابسها خفيفة رغم برد الشتاء ..

وكانت جميلة رباعة الصود طويلة بيضاء البشرة ولا تزال رغم أنها تعدت الثلاثين سنة .. شابة في عصارتها والدم الحار في شرايينها ... وخمن من السكون الذي طالعه من البيت انها تعيش مع خادمتها فقط !

وسألته وهي تنظر الى عينيه ..

ـ ما الذي فعلته ...؟

ـ لا شيء اطلاقا ..

ـ ولماذا يطاردونك اذن .. ؟

ـ اتهموني .. بانني جاسوس ..

وضحكت ...

ـ جاسوس يمكن ان يكون هذا صحيحا ..

ـ صعدوا الى عمارة في الشارع المجاور وهم على حالهم من الغضب ورأيت السكان يطلون من النوافذ في رعب قاتل . فاشفقت عليهم من هذا الاعصار الذي يدمر كل شيء في طريقه .. قلت لهم انه لايوجد انجليز في العمارة فاتهموني بالجاسوسية .. وكادوا ان يقتلوني ..

ـ الجماهير الثائرة لا عقل لها ..

ـ وهل شاهدت الثيران ... القاهرة تحترق ..

ـ ومن الذي اضرم هذه النيران ...؟

ـ المخربون والفوضويون .. وهم كالجرذان في هذه الساعة ..

ـ وغضب الجماهير يجعلهم يؤدون مهمتهم بنجاح ...

ـ أجل .. الغضب الاسود ..

***

واخذت صاحبة البيت تتأمله في سكون .. ولما بصر بالعدوة في عينيها والرقة في حديثها أخذ يتأملها بدوره فبدا له جليا من لون عينيها وشعرها ولهجتها انها مصرية وحالما تعمل في الليل وتستريح بالنهار وخمن انها راقصة في ملهى أو غانية من بنات الهوى .. ولهذا اختارت السكن في هذا الحي ..

أخذت تنظر اليه في حنان وعلى ثغرها ابتسامة جميلة .

وداب تحت سحر نظراتها .

وفكر في هذه اللحظة في العقد .. وكان قد نسيه في غمرة الحوادث التي مرت به .. وتحسسه في جيبه فالفاه في مكانه .. وعجب ان ايدي الجماهير التي سحقته وضربته لم تمتد اليه .

وفكر في أن يقدمه في هذه الساعة الى هذه السيدة ..

ثم راى أن يؤجل ذلك الى حين .. وعجب لنفسه وهو يرعب في الموت في كل لحظة لماذا فر منه عندما وجد الموت محققا .. وعندما وجد الجماهير تود أن تفتك به .. أحتى من التعذيب أم لان النفس عزيزة ولا تهون الا في حالة التضحية والجنون ؟ .

***

واخذ يتأمل حاله وكان كلما هم بالانصراف أبقته السيدة بكلمات طيبة شجعته على البقاء ..

وكانت الساعة قد قربت من الثانية بعد الظهر .. وشعر بالجوع وهي تمد سفرة الغداء .

ودعته الى الطعام فلم يرفض لانه كان يشعر بجوع شديد ..

وجلس يأكل بشهية .. وهي تلاحظه وتقدم له الطعام بحنان .

ولما فرغ قال لها

ـ انها اشهى أكلة أكلتها في حياتي ..

فسرت احسان من هذا الاطراء الذي هز أعماق امومتها ..

***

وكانت الخادمة سنية كما امرتها سيدتها قد أغلقت جميع الابواب والنوافذ

ولما كانت الشقة داخلية ولا تطل على الشارع فقد بدت الردهة معتمة ..

وكلما هم بالخروج ابقته السيدة احسان وقالت له انها تخاف الآن ولم تشعر بمثل هذا الخوف في حياتها .. بعد ان رأت النيران مشتعلة في المبنى .. والجماهير الغاضبة .. وترجوه أن يبقى معها هذه الليلة ما دام يعيش وحده في القاهرة ولا أحد سيفزع بسبب غيابه عن البيت ...

ورأى من توسلاتها ونظرات عينيها أن يبقى ..

وجلس يتحدث مع احسان حتى دخل الليل واخبرته انها تشتغل راقصة في ملهى بشارع عماد الدين وانها تعيش وحدها مع الخادمة .. وتذهب الى المرقص في الساعة التاسعة ليلا .. ولكنها هذه الليلة لن تذهب بالطبع .. وربما كان الملهى نفسه يحترق في هذه الساعة فقد سمعت ان الحريق امتد الى بناية مجاورة له ..

ورأها جميلة وطيبة وعذبة الحديث وفيها رقة وصفاء فجرن لانها تعرف هذه المهنة وتعرض جسمها عاريا كل ليلة للابصار المتوحشة ..

وسألها :

ـ هل تربحين كثيرا من هذه الحرفة؟

ـ ابدا .. واخبرتها بعد عذاب .. وجوع ..

ونظرت الى السقف كانها تحلم او تسترجع شريط حياتها .

وقالت بصوت ناعم الجرس

ـ كنت متزوجة من شاب وسيم وغني وكنت صغيرة .. واطوع له من بنانه .. ولكنه خانني اشنع خيانة ..

ـ كيف ؟

ـ كنت مريضة بالتيفود .. وطريحة الفراش .. وذات ليلة وجدته يختلس الخادمة ...

ـ وتركتيه بعدها ... ؟

ـ احسن طلبت الطلاق .. وكنت وحيدة وفقيرة وأريد أن اشتغل في اى عمل أعيش منه ـ حتى عمالة في البيوت .. لأصون نفسي من الدنس .. وأظل عفيفة .. ولكن أي رجل لا يتقاضى ثمن خدماته للمرأة المسكينة ؟ وذهبت الثمن لأول رجل شعرت في مصنع للتريكو .. وبعدها عانت على نفسي واحترفت الرقص .. وأنا أعيش مستقلة ..

ـ ومسرورة بعملك .. وشاعرة بالراحة ـ ؟

ـ لقد تبلد احساسي في الواقع لم يعد له احساس الاشيء وأنا أمثل في كل ليلة اتكلف الابتسام والضحك لأرضي الزبون ...

وأمنيتي أن أقنع عقل من يحقق له ذلك .. ويسمى كلمة حلوة مجردة من كل غرض ..

ـ أو لم تسمعي هذه الكلمة بعد ؟ .

ـ أبدا .. ما سمعتها قط ..

ـ ان هذا مجرى في الواقع ـ .

ورفعت رأسها الى عينيه وسألته

ـ لماذا يبدو وجهك مباحا .. هل لازلت خائفا ـ ؟

ـ ذهب عني الخوف ـ ولكن هذا من اثر الجوع ..

ـ وهل أنت فقير الى هذا الحد .. ولماذا لا تعمل ؟

ـ فقير جدا .. وعندي سبعين وانا ابحث عن عمل .. دون نتيجة ..

ـ تعال .. عندي في الملهى واشغلك ..

ـ في أي وظيفة ...؟

ـ سأجعلك تراقب الزبائن في الصالة ...

ـ لست من ذوي المؤهلات الحديدية حتى أصلح لهذا ...

ـ أي عمل .. أي عمل تحبه ..

ـ يا سيدي شكرا جزيلا ..

وحدقت في وجهه طويلا .. وقالت

ـ لا أدري أين رأيتك من قبل ...؟

ـ وأنا كذلك اسائل نفسي نفس السؤال ...

ـ ولهذا لم يكن وجهك غريبا على وانا افتح لك الباب ..

ـ لقد نجيتني من الموت . ولا أدري كيف أشكرك ..

وتحسس العقد في جيبه .. ثم أخرجه وقدمه لها

وبرقت عيناها وحدقت في عجب ..

ـ ما هذا ؟

ـ عقد وجدته ملقى في الطريق .. سقط من الذين تهبوا المتاجر ..

ولم يشأ أن يقول لها انه سرقه .. وسألته

ـ أتهبوا المتاجر ...؟

ـ معظم الحوانيت في هذه المنطقة .. نهبت وحرقت ..

ـ يا ليتني كنت هناك كنت ملأت بيتي بكل مايعرض من تحف وجواهر .. وضحكت ..

فقال

ـ أجل .. واملأ لك جيوبي ...

ـ أتسرق ...؟

ـ لقد سرقت ...

ـ سرقت ...!؟

ـ نعم وهذا العقد سرقته .. ثم أحذه في الشارع كما قلت لك من قبل .. واحمر وجهه ..

ولاحظ أن لون وجهها شحب ونظرت اليه باشفاق ..

ـ ولماذا فعلت هذا وانت شاب وامامك الحياة الشريفة .. شق طريقها باظافرك ... ...!؟

ـ لقد عملت ما فعل الناس .. وحدهم يسرقون ويمشون ويكدبون .. فعملت مثلهم ...

ـ وهل الناس جميعا هكذا كما تصورت ...؟ انت ناقم على المجتمع لانك عاطل .. ولماذا تبحث عن وظيفة في الحكومة .. ابحث عن عمل آخر وهناك عمل لكل من يكافح ...

ـ ما الذي افعله وانا فقير .. والاحياء يسيطرون على كل الاعمال الحرة ويمسكون الخيوط في ايديهم .. ولا أحد يستطيع أن ينتزل من هذا الحصار ..

ـ هذا حق .. ولكن على المرء أن يسعى ..

ـ لقد سعيت كثيرا وتعبت ...

ـ داوم الطرق ...

ـ الآن وقد بعثت في روحي الامل سأداوم ..

ـ ضع العقد في جيبك ...

ـ كيف .. انسى اقدمه لك ...

ـ ضعه في جيبك لا احب أن تراه سميه ...

ـ ولماذا ترددين ...؟

ـ لتقدمه للبوليس .. قل انك وجدته ملقى في الطريق ..

ـ سيقبضون علي .. هل أنا مجنون حتى أفعل هذا .. سيقبضون علي وأدخل السجن بسبب حماقتي ..

والآن أنت مستريح ؟..

ـ كل الراحة ..

ـ اذن حمده ...

ونهضت ووضعت العقد في جيبه .. كما كان .. وأحس بجسمها وهي تفعل هذا يلامس جسمه ويضغط عليه .. فأحس بتسع النار .. وظهر الاضطراب على وجهه ... ولكنه بعد قليل سيطر على عواطفه ..

***

وانسابت بخفة الى المطبخ وهي تقول :

ـ ساعد العشاء بنفسي ..

وجلسا بتعشيان في غرفة الطعام وكان الليل قد قارب من منتصفه والنيران مشتعلة في الشوارع المجاورة .. والدخان يملأ جو السماء .. وكانت الخادمة قد تكورت في فراشها منذ ساعات .. وهيا ساهرين وحيدين واحسا بالهدوء والألفة وكان قد عشقها من أول نظرة .. وبادلته نفس الاحساس ولكن بتحفظ المرأة المجربة .

وكان من عادتها أن تشرب قليلا من الكونياك مع العشاء .. فجعلته يشرب معها .. وشرب واحس بالنشوة والشجاعة على محادثتها بكل ما يشعر به .. افضى لها بكل أحاسيس نفسه .

ولما حان وقت النوم فرشت له في غرفة الجلوس ..

وقالت له :

ـ تصبح على خير ..

واستدارت لتخرج من الغرفة فوجد نفسه تحت تأثير الخمر يطوقها بذراعيه ويطبع على خدها قبلة ...

فافلتت منه سريعا .. وقالت بصوت فيه رنة الغضب ..

ـ لماذا تفعل هذا .. أتحسبني رخيصة وسهلة المنال الى هذا الحد ؟..

ـ ما فكرت في هذا .. اني ..

ـ هل ظننت وانت في جيبك النمس .. انه من السهل أن تلقيني على الفراش ..

ـ يا سيدتي أعتذر .. وساخرج الساعة ..

ـ تفضل ..

وأخذ يرتدي سترته وكان قد خلعها ليبام .

ومشى الى الباب وقبل أن يفتحه أشفقت عليه من الليل والظلام وما يحدث في الخارج .. وامسكت بيده وحدثته الى غرفتها .. وأغلقت عليهما الباب ..

***

وفي الصباح استيقظ لما شعشع النور .. وهو يحس بسعادة دافقة أحس بأنه قضى معها ليلة العمر ..

ولبس ملابسه سريعا .. وكانت احساس لا تزال نائمة .. وتعمد الا يحدث أقل حركة توقظها ..

وترك لها العقد بجوار الفراش على منضدة الزينة وتسلل بهدوء .. وفتح الباب .. وخرج الى الطريق ولم يكن يعرف أن التجول ممنوع في هذه الساعة .

***

وقبل أن يخرج من الشارع .. حسبه جندي الحراسة .. فصا من الذين تسللوا الى المتاجر التي تحطمت أبوابها .. فأطلق عليه النار ...

وسقط في مكانه ...